سلسلة دروس وعبر من هجرة سيد البشر ﷺ
الدرس السادس : مكانة المسجد وعلاقته بالهجرة.

للمسجدِ أهميةٌ كبيرةٌ في الإسلامِ، وتزامنًا مع الاحتفالِ بالهجرةِ النبويةِ المشرفةِ فإنَّ أولَ عملٍ قامَ به الرسولُ ﷺ بعدَ الهجرةِ هو بناءُ مسجدِ قباءٍ ثم المسجدِ النبويّ الشريفِ، ولعلَّ في ذلك إشارةً واضحةً لأهميةِ وجودِ المسجدِ في المجتمعِ الإسلامِي الناشئِ، حيثُ أقامَ النبيُّ ﷺ دولتَهُ في المدينةِ على ثلاثةِ أسسٍ هي قوامُ أي مجتمعٍ إسلاميّ على مدَى العصورِ والقرونِ. فالأساسُ الأولُ: المسجدُ ليربطَ العبدَ بخالقهِ ورازقهِ. والأساسُ الثاني: المؤاخاةُ ليربطَ المسلمَ بأخيهِ المسلمِ. والأساسُ الثالثُ: المعاهداتُ ليربطَ المسلمَ بغيرِ المسلمِ، وبذلك قامتْ الدولةُ الإسلاميةُ وامتدتْ إلى جميعِ الأقطارِ والأمصارِ.

إنَّ حضارةَ الإسلامِ التي أقامَهَا لا تقومُ إلَّا علَى المسجدِ، ولا تصلحُ إلَّا بالمسجدِ، ولا يكونُ لها نورٌ إلَّا بالمسجدِ، فقد انطلقتْ معالمُ الإسلامِ مِن المسجدِ الذي كان أولُ شيءٍ فعلهُ بعدَ الهجرةِ، ليكونَ روضةً مِن رياضِ الجنةِ، شيخُهُ: مَن عقِمتْ الأرحامُ أنْ تأتِيَ بمثلِهِ محمدٌ ﷺ ، وتلاميذُهُ: أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ والصحابةُ الأجلاءُ، وأمَّا موادُهُ المقررةُ فهي الوحيُ السماويُّ الخالدُ، وأمَّا الشهادةُ المطلوبةُ للتخرجِ فهي أنْ تكونَ كلمةُ اللهِ هي العليَا، فبناءُ المسجدِ لم يكنْ على سبيلِ المصادفةِ، ولم يكنْ مجردَ إشارةٍ عابرةٍ ،لكنهُ منهجٌ أصيلٌ، فلا قيامَ لأمةٍ إسلاميةٍ بغيرِ المسجدِ، أو قلْ لا قيامَ لأمةٍ إسلاميةٍ بغيرِ تفعيلِ دورِ المسجدِ .

يقولُ أحدُ المستشرقينَ (يدعَى زهيرُ) : " ما زالَ المسلمونَ في قوةٍ مادامَ معهم القرآنُ والمسجدُ " .

إنَّ المساجدَ كلَّهَا فوائدٌ وحسناتٌ، كما قالَ الحسنُ البصريُّ – رحمهُ الله –: " أيُّها المؤمنُ! لن تعدمَ المسجد إحدَى خمسِ فوائدٍ أولُهَا: مغفرةٌ مِن اللهِ تكفرُ ما سلفَ مِن الخطيئةِ، وثانيها: اكتسابُ رجلٌ صالحٌ تحبُّهُ في اللهِ، وثالثُهَا: أنْ تعرفَ جيرانَكَ فتتفقَّدَ مريضَهُم وفقيرَهُم، ورابعُهَا: أنْ تكُفَّ سمعَكَ وبصرَكَ عن الحرامِ، وخامسُهَا: أنْ تسمعَ آيةً تهديكَ".

إنَّ المساجدَ أحبُّ الأماكن إلى اللهِ تعالى وإلى رسولهِ وإلى المؤمنينَ الصالحينَ , فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : " أَحَبُّ الْبِلاَدِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا ". (مسلم).

فالمسجدُ فيهِ السكينةُ والطمأنينةُ والرحمةُ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " ... وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ."(مسلم).

كما أنَّ المسجدَ صلةٌ مباشرةٌ بينَ العبدِ وربِّهِ، وحينما تنقطعُ صلةُ الإنسانِ بهذهِ الحياةِ، ويوضعُ في قبرِهِ فإنَّهُ يتمنَّى لو عادَ إلى الدنيا مرةً أُخرى لا ليجمعَ الأموالَ أو يحصلَ المناصبَ، بل ليصلّي ركعتينِ فقط، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِقَبْرٍ، فَقَالَ: "مَنْ صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ؟ "فَقَالُوا: فُلانٌ، فَقَالَ:" رَكْعَتَانِ أَحَبُّ إِلَى هَذَا مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ ". (الطبراني بسند صحيح).

وكفَى بالمسجدِ فضلًا أنَّ المتعلقَ بهِ في ظلِّ اللهِ يومَ القيامةِ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ". (متفق عليه).

إن المسجد مدرسة روحية تغذي النفوسَ والأرواحَ عن طريق المناجاة بينك وبين خالق الكون ، ويكفي أنك بمجرد قراءتك لأم الكتاب تفتح بابًا لمناجاة ربك، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:{ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:{ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:{ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } قَالَ هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ" (مسلم)، بل إنك حينما تدخل المسجد فإنك تقوم بحرق ذنوبك خمس مرات يوميًا، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: « تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْفَجْرَ غَسَلَتْهَا. ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ غَسَلَتْهَا. ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعَصْرَ غَسَلَتْهَا. ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْمَغْرِبَ غَسَلَتْهَا. ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعِشَاءَ غَسَلَتْهَا. ثُمَّ تَنَامُونَ فَلا يُكْتَبُ عَلَيْكُمْ حَتَّى تَسْتَيْقِظُوا ». [الطبراني بسند حسن] .

فالمسجد مدرسة اجتماعية ؛ ومكان التقاء المسلمين وتقوية الأواصر بينهم .

أيها المسجد يا مأوى الحنين ..... فيك يا مسجد فجر المؤمنين

فيك أطيار الهدى قد سبَّحت ..... وسرى في قلبك الحب الدفين

وبلال الشوق نادى سَحَرًا ..... ادخلوها بسلامٍ آمنين

إن مهمة المسجد في عهد سلفنا الصالح لمن تكن قاصرةً على أداء الشعائر والصلوات فحسب ؛ بل كان المسجد ملاذًا لهم، إذا ضاقت بهم الهموم واشتبكت الغموم أتوه وانطرحوا بين يدي ربهم، فتنفرج لهم الدنيا؛ فكان ﷺ ينادي على بلال فيقول: " يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا".(أبو داود). فالمسجد كان منارة هدى ومدرسة تربية، لكَم تعلم فيه الجاهلُ، واتّعظ فيه الغافلُ، واسترشد فيه الضالُ؛ وكان يضجّ بالبكاء، فما أن يدخله الداخل حتى يزداد إيمانه، ويشتدّ في الحق بنيانه.

المسجد كان مدرسة الأجيال، خرج من بين جنباته المفسر للقرآن العالم به؛ والمحدث والفقيه والخطيب؛ والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر؛ والداعي إلى السنة النبوية المطهرة، فأخرجت رحاب المساجد آنذاك قادة الدنيا الذين غيروا وجه التاريخ وأصبحت سيرتهم غُرّة في جبين الزمن؛ وأنموذجًا لم تعرف البشرية مثله .

هذه هي رسالة المسجد، لو أديت على أكمل وجه لصلح حال البلاد والعباد

كتبه : خادم الدعوة الإسلامية

د / خالد بدير بدوي